

# المتنبى في مرآة العصر

## بقلم احسان الملائكة

يبحث عن المخرج والملاجأ ، عن السلوى والعزاء في الخلق الفني ، وكأنه يسعى الى تبرير مواقفه الشاذة غير المألوفة .

وحين أطل المتنبى على هذا العالم كانت الحضارة العربية الإسلامية قد بلغت ذروة نضجها . وتملك نفوس المثقفين فسي ذلك العصر شعور غامر بالرضى والبهجة والازدهاء ، فمن جهة كان الاسلام قد منح الناس حالة باهرة من اليقين الذي لا تشوبه شائبة من القلق او الشك . ومن الجهة الاخرى قام المعتزلة بدورهم الكبير في المزاوجة والتوفيق بين الفكر اليوناني والحضارة الاسلامية ، بعد ان نقل المترجمون فلسفة ارسطو وافلاطون وسقراط وغيرهم الى اللغة العربية . وكان من اثر ذلك كله ان ازدهرت حركة التصنيف والتأليف والترجمة والنقل ، وعكف رجال الفكر والفن والادب على الانتاج ، وصنفت الالاف من الكتب بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسانية .

ولد ابو الطيب في احضان الفاقة ، وعانى فسي طفولته اشد صنوف الالم ، فقد امه صغيرا ، وشهد بعينيه فظائع القرامطة حين كانوا يغيرون بين حين وآخر على مسقط رأسه : الكوفة ، مدينة العلم والادب ، فيعيثون فيها فسادا ثم ينهبون كل ما تصل اليه ايديهم ، ويعودون الى مخابثهم في الصحراء دون ان يستطيع الخليفة الاستضعف ان يوقفهم عند حدهم . وكان العراق مسرحا للاضطرابات والشغب ، وكانت المعاجات والطواعين والثورات تتعاقب على الرعية ( اي الشعب بمفهومنا الحديث ) والنسي كانت الضحية الاولى والاخيرة لفساد الاوضاع .

اما الامراء والوزراء والتجار وملوك الارض او من يسمونهم ( بالخاصة ) فقد كان لهم شأن آخر . وكان على المتنبى منذ شبابه الاول ان يعيش حياة مزدوجة ، فهو الشاعر المدلل المقرب للخواص ، وهو ذاته الرجل العادي المعرض دائما الى صنوف الاذى كبقية ابناء الشعب .

وفي هذا المقام يجب الا نفعل الاشارة الى مسألتين هامتين : الاولى ان الثقافة قديما كانت وقفا على الطبقة المتنفذة ومن يدور في فلكتها . واذا اتبع لواحد من ( الرعايا ) ان ينهل من منابع الثقافة فانه سيتحول بالضرورة الى الطبقة الخاصة ، لانه حينئذ لن يجد لنفسه مكانا بين افراد طبقته الاولى . والمسألة الثانية هي ان الادب القديم لم يكن له اي مجال للازدهار والتفتح الا فسي قصور الامراء والوزراء حيث تتقارع الافكار وتتبارى الاقلام وتتنافس المواهب وتوهب الجوائز بسخاء لمن يشهد له كبار المتخصصين بالتفوق . ومن جهة اخرى فان الامراء والوزراء محتاجون الى الشعراء مضطرون الي خطب

النقاد والباحثون في مسائل الفن اجمعوا على ان الفنانين ومن جملتهم الشعراء يتفردون - دون الناس - بمشاعر واحاسيس ومنازع ومشارب ، يصح ان نعتبرها امورا ملازمة لشخصياتهم تميزهم عن غيرهم ، وتكاد ان تجعلهم طبقة خاصة في المجتمع الانساني - اذا صح التعبير - ويبدو ان الفنان يتفاعل مع المحسوس والمعنوي من الاشياء بطريقة مفارقة لما لدى الناس ، فهو يسمع ويصر ويدرك بشكل لا يخطر لهم على بال . الرسام بيكاسو - على سبيل المثال - اعطى لوجوه ( اشخاصه ) لونا ازرق في فترة من فترات تطوره الفني . وقد فضل هذا اللون على لون الجلد التقليدي الذي استعمله الكلاسيكيون فسي رسومهم ، لانه وجد في الزرقة تعبيرا اكثر تلاؤما مع الفكرة التي يقصد توضيحها . وصحيح ان محاكاة الطبيعة هي احدى غايات الفن غير ان تلك المحاكاة لا يجوز ان تكون عمياء او جامدة . والرسام الموهوب هو الذي يعرف كيف يكتشف وسائله الخاصة في نقل الوقائع الى صور واشكسال .

لقد كان احمد ابو الطيب المتنبى ( ٣٠٣ - ٣٥٤ هـ ) احد اولئك الفنانين ، اذ ظلت شخصيته سرا مقلقا حير النقاد وما زال يشكل علامة استفهام كبيرة . فاذا شئنا ان نزيح الستر عن خفايا تلك النفس فان علينا قبل كل شيء ان ننصه في مكانه الطبيعي بين افراد جماعته من كبار الفنانين . والفنان يتفرد دائما بخلال وشمائل وطباع وعادات تبدو بالقياس الى ما هو معروف عند الناس شديدة الغرابة ولا يمكن تجريدها او استنساغتها ، اراد الشاعر ابو العتاهية ذات مرة ان يعلن للناس توبته وزهده فاشترى من الفخار ( حبتا ) ضخما وفتح فيه اربع ثغرات ثم دخل فيه وجلس مخرجا اطرافه الاربعة من تلك الفتحات ، وأعلن انه سيعيش على هذا الحال عقابا لنفسه ! ولما سمع تشايكوفسكي الموسيقار الروسي ان المرأة التي يحبها ستهجره صمم ان ينتحر . وكان قرب داره بحيرة قد جمدها الشتاء فخاضها حتى بلغ منتصفها ثم وقف هناك لا يريم ، معتزما ان يموت ، ولكن الناس لمحسوه واعادوه الى بيته ! وكان الشاعر ابن الرومي لا يفتح باب منزله صباح كل يوم الا بعد ان يحدق في الطريق ، من ثقب خفي في الباب ليري اول عابر سبيل ! فان كان مقبول الصورة استبشر وفتح ، وان رأى انسانا مشوه الخلق او قبيح الصورة تعوذ بالله من الشيطان وعاد الى داخل المنزل ، وقد فارقت نية الخروج ذلك اليوم !!! والحق ان تلك المسالك الشاذة هي مظاهر تلازم حالة النبوغ . ولو كان الفنان انسانا طبيعيا مثل بقية عباد الله ، لما احتاج الى الفن يعبر به عن افكاره ومشاعره ومقاصده . ان شعوره المستمر بانه غريب ومفرد وغير منسجم يجعله

ودهم بكل وسيلة ، ذلك لان الشاعر كان في الماضي يقوم بمهمة الصحافة والراديو وموظف الدعاية في زماننا ! وعلينا ان نتذكر ذلك جيداً كلما تعرضنا لدراسة ادبنا العربي في عصور ازدهاره ، والا فسد حكمنا ولم يعد له من قيمة .

ان الباحث في سيرة المتنبي المتتبع للدراسات المكتوبة عنه قديماً وحديثاً لا بد له ان يتفق مع القاضي الجرجاني (1) فيما ذهب اليه من ان اهل الادب يختلفون في ابي الطيب ، فهم بين فئتين ( فاما مطنب في نظريته ، منقطع اليه بجملة يشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ويميل على من عابه بالزواية والتقصير ، واما عائب يروم ازالته من رتبته ويجتهد في اخفاء فضائله وتتبع مسقطاته ) . ولم يقف هذا الامر عند حد النقد الادبي بل ان الرجل لقي من اعدائه العنت والاذى ، وكان كثيراً ما يلوذ بالصبر او يتكلف اللامبالاة ، وحين تطفح الكاس وينفد صبره ينفجر في ثورة عارمة ، وينسب حقد اعدائه عليه الى الحسد ، ولن ندهش بعد هذا ان وجدناه يبالغ في الفخر بنفسه حتى يجاوز كل حد . اذ كان شعوره ب عظمته الشخصية يعيد اليه راحته السلوية فتهدأ نفسه ويسكن قلقه .

وثمة موهبة اخص بها ابو الطيب دون الشعراء ، كان ذا قابلية خارقة في اثاره غيظ ( الكبار ) منه . دعاه الصحاب بن عباد ، وكان مقصد الاذباء والشعراء ، وتلفه الى قدمه ، ولكن شيئاً بدا للمتنبي ، فادار وجهه ، ورفض ان يلبي الدعوة ، ولم يكلف نفسه حتى الاعتذار !! ومن ذلك اليوم انحاز الصحاب الى جانب الاعداء مع ان الروايات تشير الى شدة اعجابة بشعر المتنبي . ثم الف كتابه في (الكشف عن مساوي شعر المتنبي) . وطمحت نفس الوزير المهلبى الى مدائح ابي الطيب وازسل اليه يستدعيه ، وما كاد ابو الطيب يرى احوال المهلبى الماخذ حتى اشمزت نفسه ففادر المكان ولم يعد اليه !! وابتى ان يمدح المهلبى ! فهاج الوزير وماج ، واسرع يفري الماخذ من شعراء بغداد ويؤلبهم عليه . ولم يكن ابن حجاج او ابن سكرة في حاجة الى من يحرضهم على ابي الطيب ، اذ كان الحسد يتاكل قلوب صفار الشعراء جميعاً . كما يروي الثقاف . ولم يكن المهلبى بكل ذلك بل بعث اليه الاديب المعروف بالحامى يناظره ، وكانت النتيجة ان ظهرت (الرسالة الحامية) تلحن وتشتتم وتلصق كل نقيصة في خيال كاتبها ، بالمتنبي !

وفي بلاط سيف الدولة الحمداني غضب ابو فراس الحمداني من اية ابي الطيب وترفعه وكبريائه وابائه ، فكان يؤلب عليه ادباء البلاط من مثل ابن خالويه وابي علي الفارسي .

ولم يكن الامر بافضل من ذلك في بلاط كافور الاخشيدي بمصر . فقد برز له الاعداء ، وكان منهم الوزير ابن حنزابة ، الذي ذكر الخطيب التبريزي في شرحه لديوان المتنبي انه المقصود بيئته :

وماذا بمصر من المضحكات ولكنسه ضحك كالبكاء  
بها نبطي من اهالي السواد يدرس انساب اهل الفلا

وتمت الماساة واكتملت فصولها حين اسود قلب فاتك الاسدي بالحقد عليه ، فجمع له جمعا من قطاع الطرق ، وهاجمه وقتله فسى معركة غير متكافئة .

ولو رجعنا الى ديوان الشاعر نتفحصه وننامله لتكشفت لنا الحقيقة : حقيقة مشاعره ازاء مواقف الاعداء . فهو يشكو الدهر ، ويتوجع من كيد الناس واصفا اياهم بالسفلة والصفار والطغمام والحساد والمتشاعرين والكذابين يقول :

افاضل الناس اغراض لذا الزمن يخلو من الهم اخلاهم من الفطن  
او يقول :

ابدو فيسجد من بالسوء يذكرني فلا اعاتبه صفحا واهوانا  
وهكذا كنت في اهلي وفي وطني ان النفيس غريب حيثما كانا

1 الوساطة بين المتنبي وخصومه - القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد الجواوي .

او يقول :

اعادي على ما يوجب الحب للفتى  
سوى وجع الحصاد داو فانه

او يقول :

ارى المتشاعرين غرروا بدمي  
ومن يك ذا هم مر مريض

او يقول :

ودهر ناسه ناس صفار  
وما انا منهم بالعيش فيهم  
وشبه الشيء منجذب اليه  
ولم يف عن باله انه غريب بين الناس . يقول :

وحيد من الخلان في كل بلدة  
لو تساءل مسائل عن مظاهر الشذوذ في خلق المتنبي ، وعن علة كراهية كل اولئك الناس له فانه سيجد الجواب الشافي في احاديثهم عنه . فلنصف جميعا اليهم ولننصت جيدا . يقول ابـو القاسم الاصفهاني (1) ( المتنبي في الجملة خبيث الاعتقاد ، كان في صقره قد يوقع الى واحد من المتفلسفة فهو سه واضله . اما ما يدل عليه شعره فمتلون ، فمصرة يذهب مذهب السوفسطائية ، وطورا الى مذهب التناسخ ، واخرى الى مذهب الفضائية ، او الى مذهب الشيعة ، او مذهب من يقول بالنفس الناطقة او مذهب الحشيشية ) .!

ماذا ترى - ايها الفارء في احكام هذا المتأدب الاصفهاني؟ اتوافقه على ما نسبته الى الشاعر من حيث المذهب استنادا الى مزاعمه المضطربة المضحكة وغير المنطقية التي ان دلت على شيء فعلى انسه يعرف بما لا يعرف ويتدخل فيما لا يفهم؟ امما اذا شئت ان تفهم سر الحاحه على نسبة الضلالة الى الشاعر ، فان عليك ان تعلم ان الاصفهاني انما الف كتابه ليهاء الدولة البويهى رداً على دفاع ابن جنى عن صديقه المتنبي . اما البويهيون فلهم حديث طويل - ليس هذا موضعه - مع شاعرنا المتحمس لقومه العرب المفرط في حبه لهم .

وبمضي الاصفهاني في حديثه قائلاً : لما انشد المتنبي كافورا قوله:  
اذا لم تنظ بسي ضيعة او ولاية فوجدك يكسوني وسفلك يسلب  
فاصدنا ولاية صيداء ، اجابه كافور ( لست اجسر على توليتك صيدا لانك على ما انت عليه تحدث نفسك بما تحدث . فان وليتكم فمن يطيقك؟) وهذا الخبر ظاهر النعم والكذب . اذ كيف يعقل ان يجاور رئيس امتد سلطانه من مصر الى الشام الى الحجاز ، رجلا يأتي اليه لنيل هباته بمثل هذه الطريقة ؟

ثم لا يكتفي الاصفهاني بايراد تلك الاخبار التي قصد بها ان يضع من منزلة المتنبي ، وانما يختم حديثه بالنهج على الشاعر تهجماً يشبث تحيزه وسوء نيته . يقول ( ولم تكن في المتنبي فروسية وانما كان سيف الدولة سلمه الى الرواض فاستجراً على الرخص ، فاما استعمال السلاح فلم يكن من عمله ! اما عن شعره فهو سريع الهجوم على المعاني يقبل الساقط الرديء كما يقبل النادر البديع . وفي متن شعره وهي ، وفي الفاظه تعقيد وتعويض ) !! وبهذا يفضح الاصفهاني نفسه بنفسه ويجاهر بالمدادة وتكاد الفاظه تصيح معترفة باذنه رجل ماجور يكتب بعد ان قبض الثمن .

لقد انصب اهتمام حساد المتنبي واعدائه على بلل محاولات يائسة القصد منها التهوين من شأنه في عالم الشعر ، والبحث عن نقائصه وتعداد التهم والعيوب والسقطات عليه ، فعل ذلك الحامى في رسالته سيئة الصيت ، وفعله ابن سكرة وابن حجاج في هجائهما المخزي ، ولكن لجميع محاولات هؤلاء باءت بالفشل والخلدان ، لان سيرة المتنبي وشعره يكذبان كل ما ذهبوا اليه . لقد كان شوكة في حلقهم .

1 - ايضاح المشكل لشعر المتنبي - ابـو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني .

وما اصدقّه حين وصفهم ووصف نفسه بقوله :

جوهره تفرح الشراف بهما وغصة لا تسيقها السفلسة  
كان ذلك موقف الاعداء . اما الوفائع ، اما سيرة الشاعر ، اما  
شعره ، اما روايات انصاره فانها الابواب التي ندخل منها الى عالمه  
لنتعرف اليه ونكتشف الحقيقة بانفسنا . وستورد احدى تلك الوقائع :

يقول ابو الطيب :

اذا صديق تكسرت جانبه لم تعيني في فراقه الحيل  
في سمة الخافقين مضطرب وفي بلاد من اختها بدل  
ذلك كان لسان حاله بعد خيبة امله في كافور الاخشيدي . وشعر  
كافور بنوايا ابي الطيب واقشعر بدنه حين تخيل ما سوف يجود به  
قريحة الشاعر ضده ، فرصد عليه العيون يرقب حركاته ويترصد خطاه  
ليحول بينه وبين مفارقة ارض مصر . وكان المقام قد طال على ابي  
الطيب واحس بأنه يخنق . ودارت في راسه الافكار :

ليس عزما ما مرض المرء فيه ليس هما ما عاق عنه النظم  
واحتمال الاذى ورؤية جانبه غذاء تصوى به الاجسام  
وهل هرب من صديقه واحب الناس اليه سيف الدولة علي ،  
ليعيش مع عبد ( مرت يد الخناس في راسه ) :

يهون علي مثلي اذا رام حاجة وفوق العوالي دونها والقواضب  
اليك فاني لست ممن اذا اتقى عراض الافاعي نام فوق العقارب  
ومضت الايام والاسابيع فهدأ كافور واطمان ، بعد ان احكم طوق  
المراقبة حول ابي الطيب . ولكن انى له ان يعلم بما كان يجري ؟ ففي  
عشية كل يوم كان الشاعر الحذر يخرج السى ظاهر المدينة ، قاصدا  
مشارف البادية ومعه كل ما خف حمله من متاع وكتب وطعام وماء ،  
يخفيه هنالك استعدادا ليوم الرحيل ، ثم يعود الى المدينة ينشد الناس  
قوله :

ذرائي والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام  
فاني استريح بذني وهذا واتعب بالاناحة والمقام  
ولما صار ود الناس خبا جزيت علي ابتسام باتسام  
يجب العاقولون علي التصافي وحب الجاهلين علي الوتسام  
اقمت بارض مصر فلا ورائي تخب ببي الركاب ولا امامي  
فليل عائدي سقم فؤادي كثير حاسدي صعب مرامي  
وضافت خطة فخلصت منها خلاص الخمر من نسج الغدام  
وفارقت الحبيب بلا وداع وودعت البلاد بلا سلام

وكان له صديق ذو صلة بالاعراب وله دراية بمسالك الصحراء  
فأعانه في كل حاجته وسهل له سبيل الفرار . وفي فجر العيد وكان  
كافور على عادته يقسم الصداقات على الفقراء . تحركت قافلة صغيرة  
تضم المتنبي وعبيدا له يحملون أمتعه وكتبه ويرافقونه في الرحلة  
الطويلة . وسار الركب في تيه سيناء سالكا سبلا مجهولة لا يعرفها غير  
اعراب البادية ، ومتقلقا في اعماق الفيافي المرعبة التي يلفها السكون  
والوحشة ولا يسمع فيها غير عذيف الريح وكأنه وسوسة الجن ! وعالم  
( الاسود ) بهرب الطريدة . فارسل يسد عليه مسالك السفر جميعا  
وبعث الى القبائل القاطنة على الطريق يأمرها بملاحقة الشاعر وهيئات!  
وبعد ثلاثة اشهر بلغت القافلة الكوفة . ثم وردت الاهاجي واحدة  
بعد الاخرى تصك اذني كافور . ودوت الحواضر والبوادي بالمقصورة  
الخالدة :

الا كسل ماشية الخيزلي فدى كل ماشية الهذبي  
وكسل نجاة بجاوية خنوف وما ببي حسن المشي  
ولكنهن جبال الحياة وكيد العداة وميط الاذى  
ضربت بها التيه ضرب القمار اما لهذا وامسا لهذا  
لتعلم مصر وممن بالعراق ومن بالعواصم انسي الفتى  
وانسي وفيت وانسي ابييت وانسي عنوت علي من عتيا  
ونام الخويسدم عن ليلنا وقد نام قبل عمى لا كرى  
وكان علي قربنا بيننا مهامه من جهله والعمى

هذه الحادثة تلقي الضوء على أحد جوانب شخصية ابي الطيب  
فقد وجدناه رجلا ايبا لا يقيم على ضيم ولا يستكين امام القوة ، ولا  
يحاول مخادعة نفسه وتمييتها الاماني :

ليس التعلل بالآمال من اربني ولا القناعة بالافلال من شيمي  
ردي حياض الردي يا نفس واركبي حياض خوف الردي للشاء والنعم  
ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا ومن عصى من ملوك العرب والعجم  
ولقد كانت ارادته من حديد وكرامته فوق اي شيء في الدنيا :

غثائفة عيشي ان تفت كرامتي وليس بغث ان تفت الماكسل  
إفد كان ازاءه هدف يسمى اليه ويبدل دونه حتى الحياة :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي؟ ما ابتغي جل ان يسمى  
انه لا يعجب الا بالابطال ولا يتعشق الا المجد والخلود . وكم يحضر  
ذلك الصنف من البشر ، الذي يأتي الى الحياة ثم يذهب ، وكأنه لم  
يكن ولم يوجد :

في الناس امثلة تدور حياتها كمهاتها ومهاتها كحياتها .  
بل انه يكاد يشذ عن الطبيعة البتريه . فالناس ينشدون الراحة  
والرفاهية والسعادة والطمأنينة والاستقرار ، اما هو فاقصى لذته في  
الاخطار والمتاعب والحركة والسفر والمغامرة :

سبحان خالق نفس كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم  
ولكن ما سر هذا الحب هذا اوله بالاخطار والشاق ؟؟ فلنستمع  
الى جوابه :

تقولين ما في الناس مثلك عاشق جدي مثل من اجبته تجدي مثلي  
محب كني بالببيض عن مرهفاته وبالحسن في اجسامهن عن الصقل  
وبالسمر عن سمر القتا غير انني جناها اجانسي واطرافها رسلي  
اما المع الرخيصة التي يتقاتل من اجلها الناس ، فهي لا تثير لديه  
اي اهتمام :

ومراد النفوس اصفر ممن ان تتعادي فيسه وان نتفانسي  
فاذا شئت ان تعرف الى سر فؤاده وتزيح السار عن هوى  
قلبه فسوف ترى انه لا يتعشق سوى النفوس الجميلة ذات الشمائل  
الحلوة فذلك وحده الذي يثير اعجابه وافتنانه :

الى ذي شيمه شففت فؤادي فلولاه لقلبت بها النسيبسا  
فهل نعجب بعد هذا اذا رأيناه يصفي الود ويبدله كله خالصا  
لصديقه علي ( سيف الدولة الحمداني ) البطل المقدم ، والاديب  
الاملي ، والعربي الشهيم اذ يرى فيه تحقيق آمال قومه العرب في النجاة  
من مطامع الفرس والترک والروم :

لحب ابن عبدالمه اولي فانس به يبدأ الذكر الجميل ويختتم  
اطمت الفواني قبل مطمح ناظري الى منظر يصفرن عنسه ويعظم  
اما مفارقتة لصديقه الحبيب سيف الدولة فتلك هي الواقعة  
الثانية التي نستطيع بها ان نزيح حجابا آخر عن شخصية المتنبي .  
ولقد ظلت علاقة المتنبي بالامير سيف الدولة لفزا من الالغاز ، وكثيرا ما  
اوقعت المؤرخين والادباء في حيرة شديدة، فلم يجدوا لها تفسيراً ولم  
يتوصلوا الى اي حل للفز. ولست انوي في هذا المقام التعرض لذلك  
الموضوع اذ انه اوسع من ان تستوعبه هذه المقالة . ولكنني ساكتفئ  
بالتحدث عن موقف المتنبي من صديقه الامير بعد ان وقعت القطيعة  
بينهما وانقطع حبل الود .

لقد اكره ابو الطيب على مفارقة حلب بمسند ان زادت المضايقات  
من ادباء البلاط دون ان يحرك سيد البلاط ساكنا . وخادع نفسه  
ومناها بان سيف الدولة لا يعلم بما يجري . وراح يلفت انتباهه ويحذره  
وينذره :

يا من يعز علينا ان نغارقهم وجدانا كل شيء بعدكم عدم  
ان كان سرهم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكم ألم  
اعيدتها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم  
وما انتفاع اخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الانوار والظلم  
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بانني خير من تسمى به قدم

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحجال البواكيا  
انه جنل سعيد بهذه اللهجة القاسية اللاذعة لانه يدري بمسدى  
فرحة سيف الدولة حين سيسمعها وسيتشفي بمفاسه كافور وبذلك  
سوف يستعيد رضاه ، وستتصالحان من جديد !! وبالفعل فقد عاد  
سيف الدولة يسترضي شاعره بالهدايا الثمينة يرسلها بيد ابنته الامير  
الشاب كي يتأكد المنتهي من معزته في قلب صديقه القديم ، ويقبل ان  
يرجع الى بلاطه . ولكن الشاعر كان قد عرف من اخلاق سيف الدولة  
ما يمنه من ذلك فراح يكتبه منظرا بانها سيعود وهو لا ينوي العودة!!

اما الواقعة الاخرى التي ترسم صورة دقيقة لخلق المنتهي والواقع  
اكثر من ان نحصى لو كان المجال يسمح - فهي حادثة سفره الى  
شيراز- فقد ناق عضد الدولة البويهى الى مدائح المنتهي اسوة ببقية  
الامراء المعاصرين له ، فبعث الى الوزير الكاتب ابن العميد يامره ان  
يسعى في اقتناع الشاعر بالسفر اليه . وكان المنتهي حينئذ في ارجان  
مع ابن العميد ينشده مدائحه الرائعات ، ويعلم استغرابه من قابلية  
هذا الكاتب الكبير في الجمع بين المتناقضات :

ما تعودت ان ارى كاتبى الفضل وهذا الذي انساه اعنياده  
عربي لسانه فلسفي رايه فارسية اعنياده !  
وفي الطريق الى شيراز مر ابو الطيب بشعب بوان وهو منزه  
ساحر المناظر أسر لب الشاعر ، ولكنه لم يستطع ان ينسى ان اهل  
هذا المكان هم اعداء قومه العرب ، فاشار الى ذلك في ابيانه المؤثرة  
التي قالها في وصف الشعب :

مفاني الشعب طيبا في المفاني بمنزلة الربيع من الزمان !  
ولكن الفتى العربي فيها قريب الوجه واليد واللسان  
ملاعب جنة لسو سار فيها سليمان لسلسار بترجمان  
وابت عليه مروته ان يترك فرصة مثل هذه تمر دون ان يستفيد  
منها ، فقارن بين الشعب الاعجمي ودمشق العربية ، وافخر بالكرم  
العربي المشهور وكانه يعرض ببخل اهل شيراز ! وحين دخل على  
عضد الدولة جابهه بقصيدته الغريبة المطلع :

اوه بديل من قولتي واهسا لمن نأت والبديل ذكرها  
ووجناها مرة اخرى يعاود محاولته السابقة في ذكر دمشق  
وحمص وخنصرة ، وكانه يريد ان يذكر عضد العولة بانه عربي شديد  
الاعتزاز بقومه وبعرويته وبذلك يرفع من منزلته في عيني ممدوحة ولو  
بالرغم عنه :

شامية طالما خلوت بها تبصر في ناظري محياها  
كل جريح ترجى سلامته الا فؤادا رمته عيناها  
احب حمصا الى خنصرة وكل نفس تحب محياها  
حيث التقى خدها وتفاح لبنان ونفري على حمياها

تلك مواقف وطنية يقفها ابو الطيب في وقت او زمان لم يكن  
الناس يميزون مثل هذه المشاعر ، اذ كانت الروابط المعروفة هي روابط  
الدين والروابط المذهبية القبلية . ولعل تلك الفيرة والحمية الوطنية  
هي العلة الرئيسية التي بفضت المنتهي الى بعض المستشرقين الاوروبيين  
في العصر الحديث ، فهم يهاجمونه في كتبهم بمناسبة وبدون مناسبة .

اما شعره فهو سجل دقيق وصادق وكامل لسيرته ولخلفه اذ انه  
لم يكتب بالمداد وانما سطر بدم القلب ورعشات الروح والمرء حين يعجب  
بشعر احد الشعراء يسعى للاطلاع على سيرته وراي معاصره فيه  
ليزداد له تفهما ومنه اقترابا . اما اذا فتح ديوان المنتهي وبدأ يقرأ  
فيه . فانه ان يحتاج معه الى شيء . ان شعره سيفيه عن كل شرح  
وكل وصف وكل تفسير . سيرى الشاعر امامه : رجلا مؤمنا بالبطولة  
متعشقا للمثل العليا ، لا يعرف هدفا للحياة اسمه وانبل من نبيل العلى  
وتحقيق الامجاد .

جد ابو الطيب في البحث عن الجمال ، شانه في ذلك شان كل  
فنان على وجه الارض ، فاين وجدته ؟ لقد راه متجسدا في النفس  
البشرية حين تتسامى الى اقصى درجات العظمة والكمال . وهو فى

انا الذي نظر الاعمى السى ادبي  
انام ملء جفوني عن شواردها  
ومرهف سرت بين الجحفلين به  
الخيل والليل والبيداء تعرفني  
ولما تحقق لديه الا جدوى من العتاب وان قلب صديقه قد تغير  
عليه ، لس الليل درعا ومضى الى دمشق النسبي كانت تحت سلطان  
الاخشيديين فدعا كافور الى مصر ليمدحه .

ودخل ابو الطيب على كافور لينشده اولسى مدائحه فماذا قال ؟  
لنستمع :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا  
تمنيها لما تمنيت ان تسمى  
اذا كنت ترضى ان تعيش بذلة  
حببتك قلبي قبل حبك من ناي  
واعلم ان اليبين يشكيك بعده  
فان دموع العين غدر بريها  
اذا الجود لم يرزق خلاصا من اذى  
رايتك تصفي الود من ليس صافيا  
خلقت الوفا لو رجعت الى الصبي  
لغارقت شيبى مروج القلب باكيا

وهكذا يوجه الحديث لا الى الممدوح الجديد المتلهف الى القوائد  
التي ستخلده ، وانما الى نفسه يحاول تسليتها عن الماضي الجميل عن  
عهد سيف العولة وترسم امام اعيننا صورة شديدة الوضوح للصراع  
النفسى الذي كان يعذب روحه . فهو حائر بين كبرياء نفسه وهوى قلبه،  
وهو يتوسل الى قلبه تارة ويوبخه اخرى ، لعله يعينه على التجلسد  
والصبر ، ولكن عبثا فالدموع تكاد تنفجر من بين الالفاظ الحزينة  
المؤثرة ، وهو سيتجرج كاس العذاب حتى الشمالة .

ويبدل كافور محاولات وجهودا لاستمالة قلب الشاعر ويقدم الهدايا  
والاموال ، ولكن روح ابي الطيب ترفض ابدا على بلاط سيف العولة ،  
والفرق صار شغلا شاغلا له ، فهو لا يهاب حتى بأصول الجمالة :

فراق ومن فارقت غير مذمم  
رحلت فكم بالك باجفان شادن  
فلو كان ما بي من حبيب مقنع  
رمى واتقى ريمي ومن دون ما اتقى  
وحين يصحو من الحلم الجميل متذكرا انه يخاطب كافورا لا سيف  
الدولة يستمر في خشونته نحو كافور المسكين ، لانه في الواقع لا يفكر  
فيه الا كوسيلة يتحدى بها سيف العولة . يقول مخاطبا كافور :

ابا المسك ارجو منك نصرا على العدى  
امن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها  
وتمضي الايام وتتقضي الشهور ، والاموال تنفق على الشعائر  
بسخاء في مصر ولكن قلبه حزين يائس وتعيس :

بسم التعلل لا اهل ولا وطن  
سهرت بعد رحيلي وحشة لكم  
وان بليت بسود مثل ودكسم  
وباتي عيد ويذهب عيد ولكن دنياه سوداء كالحة :

عيد باية حال عدت يا عيد  
اما الاحبة فالبيداء دونهم  
يا ساقبي اخمير في كؤوسكما  
اذا اردت كميت اللون صافية .  
ثم يقير ابو الطيب نهجه ويرفض ان يمدح كافورا بل يتحول الى  
هجائه ، وهو ما زال في مصر ، وحينذاك يتخذ من شخص سيف الدولة  
عزاء وسلوانا كي ينسى حقارة كافور وضعته ( ذلك كان رايه فى  
كافور ) :

اريك الرضى لو اخفت النفس خافيا  
فان كنت لا خيرا افدت فانسي  
وما انا نفسي ولا عنك راضيا  
افدت بلحظي مشفريك الملاهيا

## قمر الصباحات المنيرة

لي صباحاتي إذا ما احترقت ضوء فتيلها  
وصباحاتي إذا احترقت في مقبض الباب ،  
لتستجدي العويلا  
وصباحاتي إذا ما انتحرت عاما قصيرا أو طويلا .  
معتما كان مداري ،  
غرقت كل نجومي في سماء باهته  
ألف عام أغبر ، تطوي ليالي عصور ميته  
قمرى الناحل ما نام ليالي الموت ،  
ما نام ليالي الزوبعة .  
طالما سال حليبا في الخيام  
كورتها امسيات الجوع أطباق طعام  
وسريرا ناصعا تفرشه أنقاض تاريخي ،  
وأشلاء عظامي  
في سماوات انكساري واحتقاري  
قمرى كان صعودي وانهياري  
حارسي الليالي في صيف المنافي والسجون  
شده الجلاد جرجا ساطعا فوق الجبين  
من مدار مفلق حول مدار  
لمدار مفلق حول مدار  
قمرى كان هواي الساهر العين ،  
على بؤسي حيني

وعلى طول انتظاري  
فارسا منطفئا بين جدار وجدار  
\*\*\*  
قمرى الناحل مطروح على باب الظلام  
طائرا في طائر الرعب المدمى  
عائدا من سفر الدهر ،  
ومن منفى الخيام  
عابرا ألف مدار ومدار :  
عبر الصيف الذي ينسل ،  
من أفق محمى  
وشتاء ناحلا ينحلّ اوجاعا وحمى  
وخريفا طاعنا يطر عتمات ودها .  
عابرا ألف جدار وجدار :  
عبر النهر الذي ينساب في موت بطيء  
عبر النهر ، ليحيا النهر في الموج الوضى  
وهج يسطع حتى القلب في كهف وطى  
وهج يطلع من جرح الى ليل صدى .  
\*\*\*  
قمرى يطلع من كل جدار وجدار  
عابرا ألف مدار ومدار  
وأنا من وجهه ، أفرش باحات لعيني ،  
وباحات لداري  
وأنا أوصد للعالم أبواب الظلام  
وأنا أسند للعالم أنقاض الايام  
وأنا أبدأ للعالم أحلام النهار  
الخرطوم  
عبد الرحمن عبد الله

واللؤم والخسة هي المظاهر السائدة المتطلبة على حياة أغلب الناس ، وكان يتصور انه يستطيع اذا حكم ولاية او ولايات ، ان يغير هذا الواقع المر ويبدله الى عالم جديد نبيل مثالي - ربما على طريقة افلاطون في جمهوريته الفاضلة . وكان يرى انه اجدر الناس بتحقيق ذلك الهدف لشجاعته وعفته وابانه وترفعه عن الدنيا والصفائر .  
وفي سورة الحماس والاندياع الصادرين عن قلب فنان طفل ، غفل عن مسألة اساسية ، اذ نسي ان القابليات والمواهب على اصناف ، وان من كان ميدان بطولته الشعر والفن ، يعجز أن يقفز على حبال السياسة ، لاسيما في تلك الاوضاع الفاسدة التي عاصرها .  
لقد كان شعر المتنبي ملحمة رائعة قدمت اصفى صورة للانسان حين يريد ، وحين يختار ، وحين يعرف السبيل السوي الذي ينبغي له ان يجتازه فيمضي فيه بعزيمة تهد الجبال . وكان يسعى السى المجد فحصل عليه ، ودخل اسمه في سجل الخلود . وما كان اصدقه حين قال :  
وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا

احسان الملايكة

بغداد

ذلك لم يفتح بان يكون حامل مثل وحسب ، بل كان مثقفا على الطريقة الاسلامية الحققة ( على المؤمن ان يزيل الباطل بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، وان لم يستطع فيقلبه ، وذلك اضعف الايمان ) فليس بعجيب بعد هذا ان يشند اعجابه بالامام علي لانه يرى فيه تحقيقا لقوله :  
الراي قبل شجاعة الشجيمان هو اول وهي المحل الثاني فاذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان وهكذا نجد المتنبي يخالف غيره من الناس في مسألة اساسية : ان الرؤى وعالم الواقع يمتزجان في نفسه ويتشابكان بحيث يعجز عن التمييز بين الحقيقة والخيال . بين ماهو كائن وما يجب ان يكون ، بين صلابة العالم المادي الذي يعيشه وبين دنيا المشاعر الشفافة التي يحسها دون ان يلمسها . كان يحلم دائما بالنفوس الحلوة التي تشفق فؤاده فلماذا لا يجدها بين الناس ؟ ذلك هو سر مبالفاته المشهورة في الافتخار بنفسه ، والتمدح بشمائل زعماء زمانه . ولم تكتف عيناه برؤية دنيا الواقع وحده وانما امتدت رؤياه الى عالم المستقبل الجميل حين سيتملم الناس الا يفصلوا بين القول والفعل ، بين المثل الاعلى وتحقيقه . لقد كان يضئبه ان يرى العامية والبشاعة والصفار والبشراة